

المواجهة بين إيران وأمريكا

2007/02/27

بدأت الإدارة الأمريكية منذ أسابيع في توجيه الاتهامات لإيران بالقيام بنشاطات معادية لأمريكا في العراق، والعمل على إضعاف النفوذ الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط بشكل عام. ويرى بعض ساسة أمريكا وصناع الرأي فيها أن الرئيس بوش يخطط للقيام بعدوان على إيران وذلك بهدف القضاء على برنامجها النووي وتقويض قدراتها العسكرية، وبالتالي وضع حد لطموحاتها التوسعية ومحاولات الهيمنة على منطقة الخليج العربي الغنية بثرواتها النفطية. وفي المقابل، اتجهت إيران إلى الإصرار على تنفيذ برنامجها النووي والقيام في الوقت ذاته بتصعيد نشاطاتها السياسية وذلك في محاولة لفرض نفسها كأهم قوة إقليمية في منطقة الشرق الأوسط.

إن مما لا شك فيه أن إيران وأمريكا تعيشان اليوم حالة من المواجهة العسكرية والسياسية في المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط إلى أفغانستان، وأن إيران تحقق المزيد من الانجازات في ذلك الصراع على حساب نفوذ أمريكا ومصداقية رئيسها، ومما لا يجب إغفاله في هذا المجال أن الانجازات الإيرانية لا تأتي اليوم على حساب النفوذ الأمريكي وحده، بل وأيضا على حساب مصالح الدول والشعوب العربية ومصداقية الحكام العرب عامة. ولقد جاء التحرك السعودي للتوسط بين حركتي حماس وفتح وإقناعهما بتشكيل حكومة وحدة وطنية في سياق الوعي بأهمية المخاطر التي تواجه العرب من كل جانب، ومن أجل الحيلولة دون اتساع دائرة النفوذ الإيراني في البلاد العربية.

ولما كان من غير المقبول من وجهة النظر الأمريكية أن تهيمن إيران على منطقة الخليج، وأن موازين القوى في المنطقة لا تسمح لأمريكا باحتواء النفوذ الإيراني المتزايد، فإن الرئيس بوش ونائبه على وجه التحديد يريان ضرورة ضرب إيران وتحطيم إمكانياتها العسكرية. لكن بوش لن يتعجل الأمور، وذلك لأن العديد من رجال الكونجرس وقدامى السياسيين والعسكريين ورجال المخابرات يطالبون بفتح حوار مع إيران، ويحذرون بشدة من ورطة أمريكية جديدة قد تكون أكبر من الورطة العراقية. ولذا من المتوقع أن تستمر الضغوط الأمريكية على إيران مع تصاعد الحشود العسكرية في منطقة الخليج، وأن تتناغم تلك التحركات مع تزايد التهديدات الإسرائيلية. وفي حالة فشل أمريكا في إقناع إيران بالتراجع عن برنامجها النووي والتوقف عن تقديم الدعم للمليشيات العراقية التي تعمل بشكل مباشر وغير مباشر على تقويض الجهود الأمنية الأمريكية، فإن إدارة بوش ستجد نفسها منساقا للقيام بحملة عسكرية ضد إيران.

تشمل المواجهة بين إيران وأمريكا ساحات عديدة، أهمها العراق وأفغانستان ولبنان وفلسطين والشارع العربي بوجه عام، والمنتمي منه للتيار الشيعي بوجه خاص. ففي العراق يزداد النفوذ الإيراني من خلال الدعم المالي والعسكري والمعنوي الذي تقدمه الحكومة الإيرانية ورجال الدين فيها لحلفائها من القيادات السياسية والمليشيات العاملة على الساحة العراقية. ويبدو أن الحكومة الإيرانية قررت دعم كل الجماعات العراقية ذات الانتماء الشيعي، حتى الميليشيات المناوئة لوجهة نظرها والمتعاونة مع قوات الاحتلال الأمريكية. ويعود السبب في ذلك إلى رغبة إيرانية واضحة في تعزيز قدرات ونفوذ القوى الشيعية على حساب القوى العراقية ذات التوجهات المذهبية غير الشيعية، وذلك من أجل إضعاف نفوذ الدول العربية في العراق، وخلق دولة عربية قوية تلتقي مع إيران في توجهاتها المذهبية.

أما في لبنان فإن النشاط الإيراني أخذ يتنامى بشكل واضح بعد النجاح الذي حققه حزب الله في حربه مع قوات العدو الإسرائيلي في صيف العام الماضي وتمكنه من تقويض مفهوم الردع الإسرائيلي. وبسبب الشعبية الكبيرة التي حظي بها حزب الله بعد الحرب، تجرأت قيادته على تحدي الحكومة اللبنانية ذات السياسات والمواقف المنسجمة مع التوجهات الأمريكية، مما جعل لبنان يدخل أزمة سياسية وفكرية عميقة تهدد بتدمير كيانه. وإذا كان النفوذ الإيراني في لبنان قد نمت على مدى سنوات طويلة بدأت في عام 1982، فإنه بدأ في فلسطين قبل عام بعد نجاح حماس في الانتخابات التشريعية، وتبلور بسبب إهمال العرب للساحة الفلسطينية. وعلى الرغم من أهمية الانجازات الإيرانية على الساحات المختلفة، إلا أن أهم الانجازات تتحقق اليوم على مستوى الشارع العربي الذي سئم التملق لأمريكا، ولم يعد يقبل استمرار التهرب من مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية، ويرفض انسحاق حكوماته في التيار الأمريكي المعادي لحكومة حماس، وهو تيار لا يخدم إلا القضية الإسرائيلية وذلك

على حساب الحقوق الفلسطينية ومصالح الشعوب والدول العربية.

إن المواجهة الأمريكية - الإيرانية لم تكن وليدة خطة إيرانية أو أمريكية، بل جاءت نتيجة لأخطاء إستراتيجية ارتكبتها إدارة بوش في أفغانستان والعراق وفي تعاملها مع القضية الفلسطينية. ففي أفغانستان، جاء تدمير نظام طالبان بمثابة هدية ثمينة لنظام الحكم في إيران الذي كاد أن يدخل حرباً مع طالبان في عام 1990، ومع هزيمة طالبان تم إضعاف القوى المناوئة لإيران في تلك المنطقة وتعصيد القوى المتعاطفة معها. وفي الواقع، جاء التعاون الإيراني مع أمريكا في حربها ضد طالبان ليس حياً في أمريكا وتأييداً لسياساتها، وإنما كراهية لفلسفة طالبان المذهبية والسياسية. وفي العراق حدث الشيء نفسه، إذ جاء القضاء على نظام صدام حسين ليزيل أهم أعداء نظام الحكم الإيراني وقوة الرد العربية الوحيدة في منطقة الخليج.

أما في لبنان وفلسطين وعلى مستوى العقول والقلوب، فإن انحياز أمريكا غير المحدود لإسرائيل من ناحية، وفشل أنظمة الحكم العربية والإسلامية الموالية للغرب في وعي مصالح شعوبها من ناحية أخرى، جعل غالبية الشعوب تنظر لإيران باعتبارها النظام الوحيد الذي يدافع عن كرامة وحقوق الشعوب الإسلامية. إن اتجاه إيران إلى تحدي الإرادة الأمريكية ورفض تهديداتها العسكرية وعقوباتها الاقتصادية، وقيامها في الوقت ذاته بتهديد إسرائيل جعلها تجسد قوة الرفض والتحدي الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط لكل ما هو أمريكي وإسرائيلي من سياسات عدوانية توسعية. وهذا يعني أن نجاح إيران لم يأتي نتيجة لعوامل ذاتية تسببت في زيادة قوة إيران العسكرية أو الاقتصادية، وإنما جاء نتيجة لأخطاء أمريكية وغياب عربي شبه كامل عن ساحات المواجهة الرئيسية، مما يجعل أمريكا وأنظمة الحكم العربية تتحمل مسؤولية اتساع دائرة النفوذ الإيرانية وتزايد تعاطف الشعوب العربية والإسلامية عامة مع مشاريع إيران النووية.